التاريخ وفلسفة التاريخ

بقلم روبير كامبل

خلف الفنان ، وخلف الرياضي ، وخلف المؤرخ ، نجد دائماً شخصاً آخر يعمل حاضراً إن لم يكن غير مرئي ، وهو لايترك الأول قط ، خشية ان يغيظه . إنه قائم ابداً على مسافة منه ، شيطاناً او ملاكاً حارساً ، ولكنه ينظر ويسعى الى الفهم ، ويطرح على نفسه اسئلة : إنه « يفلسف » . اما الفنان فلا يتزعج منه ، واما الرياضي فيهزأ به ، واما المؤرخ فيحذره .

والواقع انه اذا لم يكن يُخشى قط ان يكون بالامكان اعتبار فلسفة الفن فناً ، ولا اعتبار فلسفة الرياضيات رياضيات ، فان « من جوهر فلسفة التاريخ ، على عكس ذلك ، أن تعتبر تاريخاً » كما لاحظ « غوهيه »(١) . وهكذا ، بينما يكون المهندس والرسام عازفين منفردين لاشك في عزلتهما ، فان المؤرخ لايستطيع ان يُسمع صوته إسماعاً صالحاً إلا بالمرافقة ، اي الا بان يعرّض نفسه لخطر ان يرى مرافقه فجأة يلمع على حسابه . وهذا ما يدعوه على الأقل لأن يكون حذراً .

ويلح الفيلسوف المهني « ريكور » Ricœur على هذه الحقيقة : « إن غرض التاريخ هو الموضوع البشري بالذات » . ولكن هذا الموضوع هو ايضاً غرض الفلسفة وفي ذلك ما فيه من تداخل وتشابك . وبالاضافة الى هذا ، فما ان يأخذ الموضوع البشري نفسه على انه غرض ، اي ما ان يطرح نفسه سؤالا ، حتى تكتسب قضية جوهر الحقيقة وحدود التجرد والطبيعة البشرية بروزاً خاصاً . إن الفيلسوف يأخذ التاريخ كشهادة ، ويأخذ المؤرخ نفسه وهو يفلسف . ولاشك في انه قد عُرفت ، خلال الزمن ، مراحل كان الرجل يعتبر نفسه فيها كواقع جامد قادر ان يكتشف عن نفسه حقائق نهائية ، واذذاك كان المؤرخ والفيلسوف يتواجهان بصراحة وصدق ولكن التاريخ يقدم لنا كذلك امثلة كثيرة عن تلك المراحل الانقلابية الذي يجد فيها الوضع البشري نفسه ، وقد زعزعته فجأة معطيات تخصّه ، مقسوراً على أن يضع موضع الشك ما كان يحسبه صفاته الجوهرية ، واذ ذاك يكشف مفهوم « الانسان » هذا المفهوم الذي كان مقراً ومعترفاً به ، عن قصوره في تمييز هذا المجهول الذي أصبحه . وسرعان ما نرى المؤرخين عندئذ يعودون الى التساؤل عن طبيعة حقيقتهم ، كما نرى الفلاسفة يسقطون في ازمة قلق ، وتزدهر في المكتبات الدراسات التي تتناول مصير « الإنسان » .

وقد حملت الأشهر الأخيرة الى الذين لم يدركوا بعد أن عهدنا ينكشف عن جميع هذه العوارض ، عناوين مؤلفات جديرة بان تكفي لإقناعهم بذلك . من هذه العناوين « المعرفة التاريخية » La connaissance historique وهي دراسة مؤرخ ممتهن هو « مارو » H. I. Marrou ، و « الفكر والتاريخ » L'Esprit et l'Histoire بقلم « بيير هنري سيمون » P. H. Simon . و « التاريخ والحقيقة » Histoire et Vérité لبول ريكور المذكور آنفاً ، ولا ننسى دراسة « ميرلوبونتي » Merleau - Ponty الهامة جداً عن « مغامرات الديالكتية » Les Aventures de la Dialectique كما اننا لاننسى الترجمة الفرنسية لكتاب هيغل « دراسات عن تاريخ الفلسفة » . إن جميع هؤلاء المؤلفين يتساءلون ، في عام ١٩٥٥ ، عما هي في التاريخ طبيعة الحقيقة . وما عساها تكون . وكيف ينبغي ان تكون . واننا اذ نفكر بان المؤرخين ، منذ « توكيديد » Thucydide يتساءلون عن هذه الطبيعة ، فاننا مسوقون

يهمّ « الآداب » ان توالي ، عدداً بعد عدد ، تقديم بعض الدراسات الفلسفية التي تمنح القارىء العربي زبدة معارف وابحاث تعينه على تكوين ذهنية فلسفية وعقلية متفتحة .

ويسرّ المجلة ان تترجم هنا هـــذا البحث القيّم الذي يتناول عدداً من النظريات الحديثة في فلسفة التاريخ .

وتعتقد اننا نستطيع ان نفيد منها في اعادة النظر الى تاريخنا العربي .

التحرير

(١) Gouhier في كتاب « La Filosofia della storia della Filosofia » منشورات « بوكا » Bocca ، روما ، ص ١٨٤ .

الى التفكير بان القضية تحتمل ولا شك صعوبة هامة .

إن علماء الفيزياء والطبيعيات والرياضيات يكادون لا يقلقون حول طبيعة حقيقتهم : إنها في نظرهم ما يرونه وما يجدونه وما يفعلونه (ولاشك في ان « الحقيقة » الحقيقية تهزأ هي ايضاً بالحقيقة) . إن هذه الفكرة في التاريخ هي من عمق الالتباس بحيث ان اللغة نفسها تهتم بها منذ حين : فما دامت كلمة « التاريخ » الجارية تعني في الواقع « مجموع الماضي الذي عاشه الانسان ، من جهة ، ومن جهة اخرى ، المعرفة التي يمكن ان تؤخذ عن هذا الماضي ، فان من الضروري ، توخياً للدقة ، خلق كلمتين مختلفتين لهذين المعنيين . وهذا ما نبه اليه هيغل من قبل . وقد جرت محاولات لإزالة هذا الالتباس في مختلف اللغات .

فما دام « التاريخ » (في المعنى الأول : ركام عظيم من الأحداث والحيوات والافكار التي تكون ماضي الانسان) يشكل مجموعاً يستحيل عناقه كله ، فان اول عمل للمؤرخ يكمن في أن يستخرج الخطوط التي يعتبرها الخصائص المميزة وان يجعل منها « قطعاً مختارة » . ولكن سرعان ما يبرز هنا سؤال : امن الممكن ان تكون ثمة طريقة لإعداد هذا الاختيار تكون «اكثر حقيقة» من طريقة اخرى ؟ إن هذا يقلق «مارو» الذي يقول :

« إن المؤرخ لايحتفظ الا بالعناصر المفيدة ، في رأيه ، ليشرح الظاهرة او الظواهر التي اختارها للشرح . وهذه عملية مشروعة ، ما لم ننس انها تمثل تجريداً. ولكن الخطر كبير ، فاننا نوشك دائماً ان ننسى وجود ما قررنا ألا ننظر اليه » ١

إن الحقيقة هي هنا في خطر إذن ، على الاقل تلك « الحقيقة — اليقين » ، تلك الحقيقة « المجردة » التي يبدو انها تنتظم هدف كل بحث ، والتي تظهر على انها « مهمة توحيد المعرفة من جهة الهدف ومن جهة الموضوعات ، اي التغلب على تنوع حقل معارفنا واختلافات آرائنا » ٢ ولا نستطيع ان نخفي عن انفسنا ان في هذا التعريف الأخير للحقيقة تنافياً عميقاً مع الطريقة نفسها التي يتكوّن بها التاريخ . ومن أجل هذا ، يلاحظ « ريكور » ان التاريخ ليس في نهاية المطاف الا « تاريخ اخطاء » ، والحقيقة ليست الا « تعليق التاريخ » . وهذا النوع من الحقيقة ينبغي ، في نظر « مارو » الذي يعارض كل نزعة وضعية ، ان « يُرفض ويلقى جانباً » ، بالنظر الى ان التاريخ الذي يكتبه غير قابل للانفصال عن نفسه ، شأنه في ذلك شأن اللوحة ورسامها :

« اننا نمس هنا جوهر المعرفة التاريخية بالذات . فانها حين تتناول موضوعها كله ، اي غنى الواقع البشري كله ، لاتكون جديرة بهذا التجميع للاحتمالات الذي يستطيع ، نظرياً ، أن يقود الى شبه يقين . انها تستند في آخر الأمر الى ايمان ، فنحن نعرف من الماضي ما « نؤمن » بأنه حقيقي مما فهمناه مما احتفظت به الوثائق » (ص ١٣٣)

وبهذا المعنى ، يمكن اتخاذ الحقيقة التاريخية مثلا لعكس الحقيقة العلمية ، وقد عبّر ماروعن ذلك : « إن الحقيقة التاريخية تعارض الدقة ، باعتبار ان الدقة في التاريخ لا تنمو الا على حساب اليقين . »

ويصل « ميرلو بونتي » الى مثل هذه النتائج بوجهات نظر مختلفة بعض الشيء ، فهو يقول : « ليست المعرفة حاسمة قط . إنها دائماً تحت حق الكشف . فليس هناك ما يجعل أن نكون الماضي ، فهو ليس الا مشهداً امامنا ينبغي لنا أن نستفهمه . إن الاسئلة تأتي منا ، وهذا يعني ان الاجوبة ، مبدئياً ، لاتستنفد واقعاً تاريخياً لم ينتظرها لكي يوجد » ١

وهكذا يتم التاريخ بالنسبة للأسئلة التي يطرحها عليه المؤرخ ، وهو بهذه الطريقة يبلغ حقيقته على خير وجه ، باعتبار ان حقيقة حادث ما تكمن في نتائجه اي في مستقبله اكثر مما تكمن فيه هو نفسه ، وهكذا تخص مؤرخي المستقبل الذين سيروونه اكثر مما تخص الحدث « الخام » بذاته .

« اتراه ليس هناك ، قبل الصورة التي نتصور بها الماضي ، إلا سلاسل من الحوادث لا تشكل نظاماً حتى ولامنظورات ، وتكون النتيجة فيها مؤجلة التنفيذ ؟ ام ترى تعريف التاريخ هو الا يوجد تماماً الا بما يأتي « بعد » ، وان يكون ، بهذا المعنى ، معلقاً بالمستقبل ؟ اذا كان هذا صحيحاً . فان تدخل المؤرخ ليس عيباً من عيوب المعرفة التاريخية » ٢

والواقع ان التأريخ ليس هو اختيار احداث ، وصفها

(١) « المعرفة التاريخية » ص ٤٨ .
(٢) « التاريخ والحقيقة » لريكور ، ص ٥٤ .

(١) « مغامرات الديالكتية » ص ١٦ .
(٢) المصدر السابق ، ص ١٦ .

الواحد تحت الآخر . وتركها هكذا متقاربة ، جامدة ومنفصلة كأطراف عملية جمع لا تقوم بها في آخر الأمر . إن صانعي تاريخ مقصور على مثل هذا التسلسل غير المنسجم يشبهون ، على ما يقول هيغل « حيوانات سمعت جميع انغام قطعة موسيقية ، ولكن حواسها لم تدرك هذا الشيء الواحد : انسجام هذه الانغام » ١ . ثم إن جميع المؤرخين متفقون على هذه الناحية . إن رواية الاحداث بشكل مصطخب وغير منظم ليس « شيئاً تاريخياً » . وهي لا تصبح كذلك الا اذا طبعت بمنظور الراوي الخاص : فان دوس باسوس حين كتب « ١٩١٩ » وسارتر حين وصف دخول النازيين الى براغ ، انما كانا يكتبان رواية ، لا تاريخاً . وقد اشار الى مثل ذلك « ألان » Alain في « اقوال عن الادب » Propos de Litterature : « إن ما حاوله ستاندال عن واترلو وتولستوي عن اوسترليتز يمت الى الرواية : فان المستقبل لا يرتسم فيه كما سيكون »

وعلى ذلك . فان الحقيقة التاريخية لن تنظم إلا بفضل الرؤية المرتدة الى الماضي والتي تتلاءم مع الحقيقة ، ولا تمثل عقبة لها . فمن هذه الرؤية للاحداث (المرئية باتجاه معاكس للاتجاه الذي حدثت فيه) يمكن ان تنتج الوان تقاربها أو تعارضها ، ومثل هذا شأن المنظر الذي لا يمكن ان ينتظم وان يأخذ « شكلا » ، اي « معنى » الا ابتداء من وضع الرسام . وانما ينبغي على المؤرخ ، وهو في مكانه ، أن يلتقط مثل هذه البنيات لمجموعة الاشياء الماضية ونظامها وتقاربها ، لا هذه الاشياء نفسها التي هي بالاحرى من اهتمام الراوي والمحدث كما هو الشأن لدى كومين Commines او سان سيمون Saint - Simon . ومعلوم انه بمجرد ان تتغير وجهة النظر ، يتغير نظام العناصر وتجميعها وتقريبها ، اي معناها . ولما لم يكن ممكناً أن تظل وجهة النظر ثابتة ، بسبب أن الوقت يجري ، فان معنى التاريخ لا يصلح قط إلا لفترة معينة ، هي التي يعبر فيها الراوي عن رأيه . فانه يكتشف حينذاك ، في منظوره الخاص ، هذه المجموعات المفهومة التي يتحدث عنها ميرلو بونتي « التي لا تقطع قط علائقها مع « عدم لزوم الوجود » والتي لا ينجح التاريخ في بلوغها إلا إذا ملك نفسه أو اتخذ قراراً ، ولكن في حركة لا ضمان لها »

(١) هيغل – المصدر المذكور ص ١٨ .
(٢) المصدر السابق ، ص ٣٦ .

وبالجملة ، فليس هناك قط عمل تاريخي إذا لم يكن هناك بحث عن المعنى . والذي لا بد منه ، لكي يكون ثمة تاريخ ، حذف اللامعنى أكثر من مجيء المعنى . وهكذا يكون التاريخ حكماً ، تأملا في الأحداث ، أي كما قيل أيضاً «فلسفة للتاريخ» . وهنا يصبح حذر المؤرخ من الفيلسوف حذراً مشروعاً جداً . ذلك ان الفلسفة نادراً ما تكتفي بالمعاني العابرة : انها رغبة خلود : انها تريد أن تنصب من نفسها نظاماً ، ولا تستطيع أن تمنع نفسها من أن تجد لمجرى الأحداث معنى لا يكون ملازماً لزمن راويها . إنها تريد أن تجعل فوراً كلاً من مجموع الأحداث التي لا تستطيع قط أن تدركها إلا بحدس ناقص ، وهي تعتقد أن مهمتها بالذات هي أن تقوم باعادة بناء هذا الكل ابتداء من الأجزاء المتناثرة . إن الفيلسوف يريد أن يعرف أن يقرأ ، ليتمكن من الإجابة على السؤال « إلى أين يمضي التاريخ ؟ » أو « إلى أين يمضي الإنسان ؟ »

ويلاحظ بيار هنري سيمون بهذا الصدد أن كل مفهوم للتاريخ ينبغي أن يجيب دائماً على سؤالين :

« هل يكون فكر الإنسان المحرك الرئيسي للأحداث ، أم ان هذه الأحداث ، على العكس من ذلك ، تتبع مجرى طبيعياً ومحدوداً يستدعي سلوك الوعي ؟ هذا هو السؤال الأول . أما السؤال الثاني فهو : أيكون معنى التاريخ مطمئناً للإنسان ، سواء كان هذا المعنى مقدوراً أو حراً ؟ وهل على الإنسان أن ييأس أمام تتابع المصائب والكوارث عبر الأزمان ، أم ان بوسعه أن يؤمن ، إن لم يكن بغائية لازمة للنظام والسلام ، فعلى الأقل بتقدم طبيعي نحو وضع أفضل وخلاص ممكن للجنس ؟ » ١

فالقضية في نظر المؤرخ هي بالإجمال أن يعبر عن رأيه في أحد هذين الأمرين : « حرية الإنسانية أو قدرية الأشياء ، فأما الذي يختار الأمر الأول ، فتبدو له إمكانية اكتشاف معنى التاريخ منذ الآن شيئاً غير قابل للفهم ، وإذن ، فان فلسفة التاريخ تدع هذا المعنى معلقاً وتمتنع عن أن تتعلل بأي اعتبار لاهوتي . وهذا هو ، على سبيل المثال ، موقف سارتر :

« تتساءلون : هل للتاريخ معنى ؟ هل له غاية ؟ أما أنا فأعتقد أن هذا سؤال لا معنى له ، لأن التاريخ ، خارج الإنسان الذي يصنعه ، ليس إلا فكرة مجردة وجامدة لا يمكن

(١) بيار هنري سيمون – الكتاب المذكور ص ١٢٣ .

أن يقال عنها إن لها غاية أو ليست لها غاية . وليست القضية معرفة غايته ، بل هي أن نعطيه غاية » ١

أما الذي نختار الأمر الثاني ، فان وقوع الأحداث في نظره يجري وفق قوانين تحمل مفتاح السر التاريخي ، ومن ثم الإنساني ، وهي قوانين يمكن أن نأمل اكتشافها ، اعتقاداً منا بأن إخفاق مثل هذا المسعى ليس منطوياً في بنية الأشياء بالذات. وهكذا حاول بوسويه وهيغل وماركس وكوندورسيه واوغست كومت السيطرة على نظام الزمن . وهنا « يكف » التاريخ ، على حد تعبير « غوهيه » ، عن أن يكون تاريخاً ، ما دام يعتبر نفسه « سيرة للإنسان أو للاله . » ولما لم يكن ممكناً أن تأتيه معرفة نهايته من اعتبارات تاريخية ، فانها تأتيه من مكان آخر. ولا يمكن أن تكون إلا نوعاً من الكشف أو « الوحي » . وهكذا يصبح التاريخ ، بهذا المفهوم ، لا فلسفة للتاريخ فحسب ، بل لاهوتاً للتاريخ . ونحن نرى « مارو » يعارض هذا المفهوم :

« ... ما جدوى التاريخ ، في الواقع ، إذا علمتنا الفلسفة مسبقاً ما ينبغي أن تشتمل عليه ، مما هو جوهري . إن التاريخ في تلك الحالة ليس إلا آلة مسجلة تقرر ان الأشياء جرت « كما ينبغي أن تجري » ، إنه ليس إلا مقياساً تطورياً للتحقق » (ص ١٩٩) .

والواقع أن استبدال التاريخ بشيء آخر غير نفسه إنما يتم هنا حتى درجة الاغتصاب ، بعد أن أصبح المؤرخ مجرد آلة في خدمة قضية تتجاوزه وتحمله . فهل هذا الإغراء ، هذه الخطوة الضالة ، هذه الكارثة ، أشياء يمكن حقاً تفاديها ؟ إذا كان بالإمكان التأمل بأن نعم ، فان ذلك لن يكون على أي حال إلا قليلا جداً ، ذلك انه سيكون صعباً منع جميع المؤرخين من أن يتساءلوا عما إذا لم يكن ممكناً إدراك « المعنى الإجمالي » الذي سيأخذه « هذا الوجه بينما ترسمه أعمال البشر » . إنه يحدث ، في أعماق الاستغراق في العبث ، أن يحل محل السؤال التراجع الذي يصعب تحمله . وهنا تفترق المسيحية في نظر « ريكور » عن الوجودية . فالوجودية تعتبر قبول لا يقين التاريخ « الكلمة الأخيرة » ، أما المسيحية فلا تعتبره إلا الكلمة قبل الأخيرة . ٢

إن التاريخ ، في نظر سارتر ، لا معنى له ، فينبغي أن نعطيه معنى .

وهذا ما نحاول أن نفعله دائماً . ولا بد للتاريخ ، في نظر ريكور الذي لا يقل عن سارتر حذراً من « هذه الفلسفات النظامية للتاريخ التي تضع بين أيدينا مفاتيح الفهم » — لا بد للتاريخ في نظره من أن يكون له معنى ، ولكن هذا المعنى خاف بالأساس . وريكور يخرج من الانغمار في العبث ، هذا الانغمار الذي لا مفر منه ، رافضاً هو أيضاً « النظام » ولكن قابلا « السر » . وإن المسيحي يؤمن بوجود معنى للتاريخ البشري ، ولكنه يشعر انه لايستطيع ان يدركه ، وانه لا يستطيع ان يميز « العلاقة بين التاريخين : المقدس والمدنس » (ص ٩٩) . وهو يأمل أن تنكشف ذات يوم وحدة المعنى بكل وضوح .

وهذا الوضع ، مهما بدا مختلفاً بل مناقضاً لوضع الوجودية لا يمكن ان يؤدي الى معارضة مشابهة في مفهوم مهمة المؤرخ. فسواء لم « يكن » المعنى في الأشياء او كان فيها غير مرئي . فينبغي دائماً وصف هذه الأشياء ، وبالوسائل نفسها في الحالتين كلتيهما . ولئن كان هناك حقاً قطاعاً ، فانما ندرك القطاع الذي نحن فيه فقط ، كما رينا كافكا . فاذا كان من وظيفة المؤرخ إذن ان يحذف اللامعنى ، اي اللاعقلاني . فليس يعني ذلك انه يملك القدرة على ان يستبدل به العقلاني . فكلما نزع التاريخ الى ان يصبح مفهوماً ، بعد ان يحذر الفلسفة حذراً غير كاف ، فانه يكف عن ان يكون تاريخاً ، باعتبار ان الممثلين فيه قد حُذفوا والحوادث قد فقدت طابعها الوجودي لتحول الى لحظات ديالكتيك .

وبالاختصار ، فان على فيلسوف التاريخ ، في حواره المفارق مع رفيقه الذي لا يفترق عنه ، المؤرخ ، ان يمنع هذا الأخير من السقوط ضحية ميله الى الوصف الحسي والقبض على التجربة المعاشة ، ولكن ينبغي على المؤرخ الا يترك « عقلية النظام » التي يتمتع بها فيلسوف التاريخ تحول التاريخ الى فلسفة محققة . فلئن كان ثمة فلسفة واعية وناصحة للتاريخ ، فينبغي ان تذكر المؤرخ بلا انقطاع ، ان في الانسان وفي الحياة . على حد قول هملت لهوراسيو ، اشياء تفوق المتخيلات في افكار نظرية من النظريات » وان على التاريخ ، اذا كان يجب ان يكون معرفة مدروسة ، ان يبقى دائماً ، كما يقول « مارو » « اقرب الى التجربة المعاشة منه الى التعليل العلمي » . إن على التاريخ ، لكي يظل اميناً لنفسه ، الا يُفهم ابداً كأنه خارجي ، كعقل فوقي ليس لنا الا ان نسجل احكامه ونتائجه ، بل ان يفهم ، كما يقول ميرلو بونتي ، « كهذا الحدث الميتافيزيقي الكامن في ان الحياة نفسها (حياتنا) تجري فينا وخارجاً عنا ، في حاضرنا وفي ماضينا ، وان العالم نظام ذو عدة مداخل ، او كما يحسن القول ، ان لنا اشباهاً . » ١

روبر كامبل

(١) عبارة اوردها ب. هـ. سيمون في المصدر السابق ، ص ٢٠٧ .
(٢) ريكور ، ص ١٠٠ .

(١) راجع العدد ٤٢ من مجلة N.R.F.